

"حجاجية النص الشعري" -قصيدة اقرأ كتابك أنموذجا-

د. بن يامنة سامية.

جامعة مستغانم

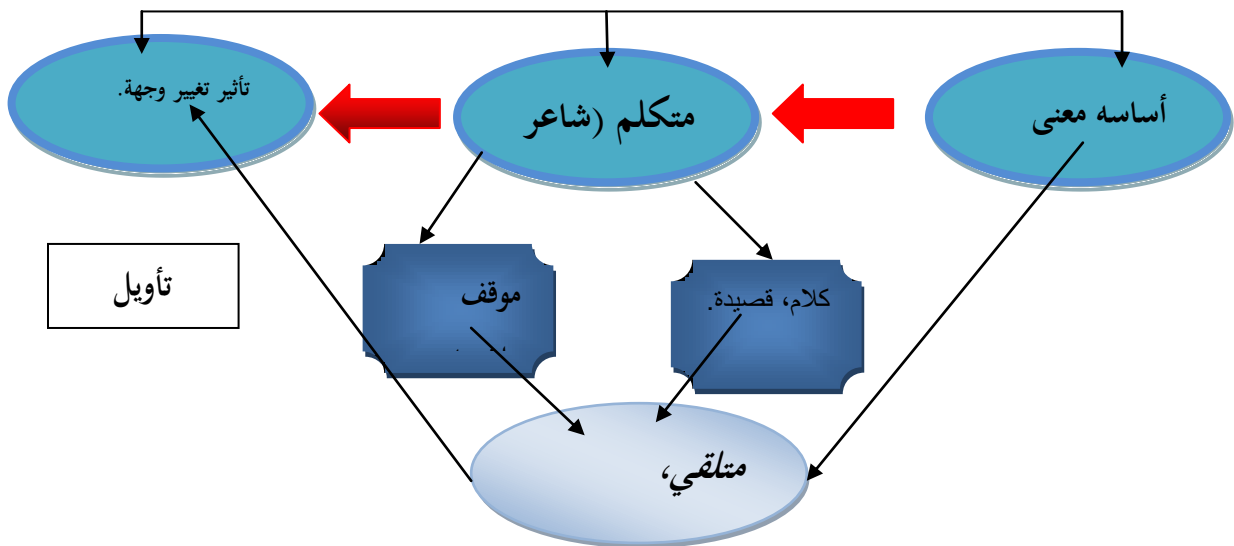
تمهيد:

شهدت مناهج التحليل الأدبي والنقدي تطورا كبيرا، ويعود السر في ذلك إلى التطور الذي عرفته العلوم الإنسانية من جهة، والدراسات اللسانية من جهة أخرى، والتي فتحت لدارسي ومحللي النصوص والخطابات الأدبية آفاقا ومساحات أكثر رحابة، تتميز بالسعة والتنوع والخصب والغنى. ومن بين هذه المناهج "المنهج الحجاجي" الذي بين من خلاله أبو بكر العزاوي أنه من أهم المناهج التي يمكن أن تعتمد في تحليل الخطاب اللغوي بعامه، والأدبي على وجه الخصوص. وهنا نشير إلى أن الحجاج ليس مجاله الجملة؛ إنما يتعدى ذلك ليتعلق بالخطاب ككل؛ من حيث طبيعته وبنائه وتراتبية عناصره، وتنامي غاياته، وطرائق تشكيل أقواله. ومعلوم أن "الحجاج" موجود في كل أنماط الخطاب؛ في الخطاب القانوني والخطاب الفلسفي، و"الخطاب الشعري" أيضا باعتبار أن غاية الشعر ليس الإمتاع فحسب؛ وإنما قد يهدف إلى الإقناع والتحريض، وبالتالي التأثير في المتلقي من أجل تغيير مواقفه وتجاوز سلوكياته. وضمن هذه الرؤية يندرج بحثنا، والذي نحاول من خلاله بدايةً تسليط الأضواء على طبيعة المنهج الحجاجي، ثم نكشف عن آلياته في تحليل الخطاب الشعري، لنسعى بعد ذلك إلى تطبيقه في تحليل قصيدة "اقرأ كتابك" لمفدي زكريا، والتي تقوم على قوى حجاجية عالية ومتنوعة تستدرج المتلقي بما تجعله يدع عن للمقاصد المطلوبة.

1- حول الحجاج:

انبثق مفهوم "الحجاج" في اللغة في رحاب نظرية الأفعال الكلامية التي وضعها أوستين وسورل، وقد قام "ديكرو" بتطوير أفكارهما، كما اقترح في هذا الإطار إضافة فعلين لغويين وهما: "فعل الاقتضاء" و"فعل الحجاج"، والذي عرّفه بأنه «فعل لغوي موجّه لإحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية؛ أي مجموعة من الحقوق والواجبات. ففعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطا معيناً من النتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه الحوار، والقيمة الحجاجية لقول ما هي نوع من الإلزام يعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميه واستمراره»¹.

ويمكن أن نبيّن أكثر أساسيات الحجاج عند ديكرو في المخطط التالي:



نستشف من خلال هذا المخطط أنّ "الحجاج" عند "ديكرو" هو أساس كل دلالة؛ فهو في نظره «لم يعد نشاطا لسانيا من بين أنشطة أخرى، ولكنه أساس المعنى نفسه، وأساس تأويله هو الخطاب»².

ويمكن القول إنّ فعل الحجاج يفرض دائما على المتكلم سلطته، وتلزمه اتباع طريقة معينة في إنتاجية الخطاب، وأن يقدم جميع الحجج التي تقوده إلى تحقيق الغاية من الخطاب، وبالتالي فهو «يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها»³. كما وردت عدة تعاريف تصب في جوهر الحجاج ويمكن إجمالها فيما يلي⁴:

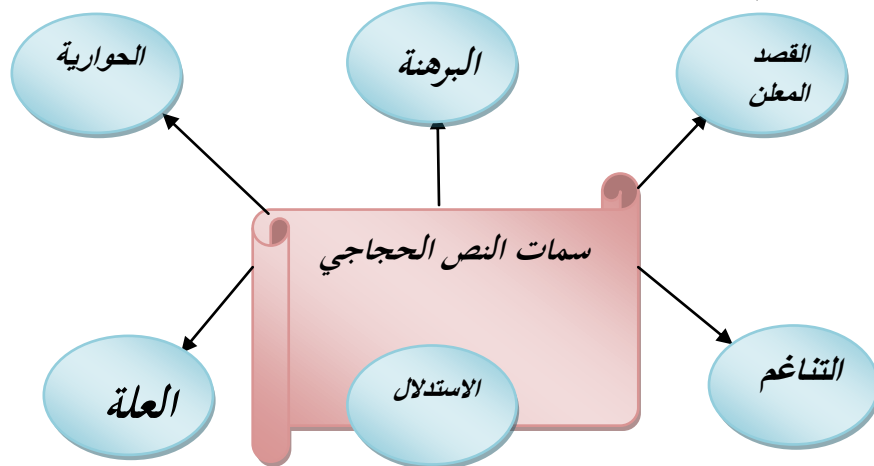
1- "الحجاج" عند "أندرسون Andersen" و"دوفر Dover" طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية وعرضها لحل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة، والتأثير في وجهات النظر والسلوك.

2- الحجاج عند "بريلمان Perlman" و"تيتكا tyteca" طائفة من تقنيات الخطاب التي تسعى إلى استمالة المتلقين للقضايا التي تعرض عليهم، أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة.

3- "الحجاج" فعل لغوي أو عملية اتصالية أو جنس من الخطاب التفاعلي، مع إبراز أهم مكوناته. ويتبدى لنا من هذه التعاريف أنّها مبنية في الأساس على عناصر موضوعية يمكن إجمالها في كون "الحجاج" جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية أو فرضية خلافية معينة، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالبريريات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا، قاصدا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو تعديل سلوكه اتجاه تلك القضية⁵.

2- خصائص "النص الحجاجي Le texte argumenté":

يختلف "النص الحجاجي" عمّا سواه من جهة هدفه وأفكاره المترابطة، كونه يتوخى بالدرجة الأولى إقناع المتلقي بوجهة نظره؛ وبهذا يمكن اعتباره «نصا متناغما يقوم على وحدة معينة لا تكون بالضرورة واضحة جلية؛ بل قد تأتي على نحو خفي لا نكاد نلمحه، وُضع لإقناع المتلقي بفكرة أو بحقيقة معينة عن طريق تقنيات مخصوصة»⁶. ويمكن أن نستخلص سماته في الخطاطة التالية:



وانطلاقا من هذا المخطط نلاحظ أنّ "النص الحجاجي" يبنى على ذلك القصد المعن الموجه لمتلقٍ معيّن من أجل إقناعه بفكرة مبنية على المنطق في غالب الأحيان؛ كما يقوم على الاستدلال المبرهن على نظام مترابط ترابط فيه جملة من العناصر وفق نسق تفاعلي يوظف فيه المتكلم جملة من الأمثلة والحجج، بالإضافة إلى تقنيات أخرى، وسمات أساسية أخرى أثارها الباحثون وهي: "الحوارية أو التحوارية" بحكم أنّ «النص الحجاجي في جوهره حوار مع متلق؛ حوار يقوم على علاقة ما بين مؤسس النص ومتلقيه، وهي علاقة تتخذ دون شك أشكالا عديدة يكشفها الخطاب»⁷.

3- الحجاج والشعر:

لقد اختلف في قضية حجاجة الشعر من لدن بعض الباحثين، والذين أقرّوا بوجود تعارض بين "الحجاج" و"الشعر"؛ و من بينهم "ستيفان تولمان SfephenToulmin" الذي قدّم في كتابه "استعلامات الحجاج" les usages de l'argumentation موقفاً يتلخص في المعادلة التالية: الحجاج ≠ الشعر.

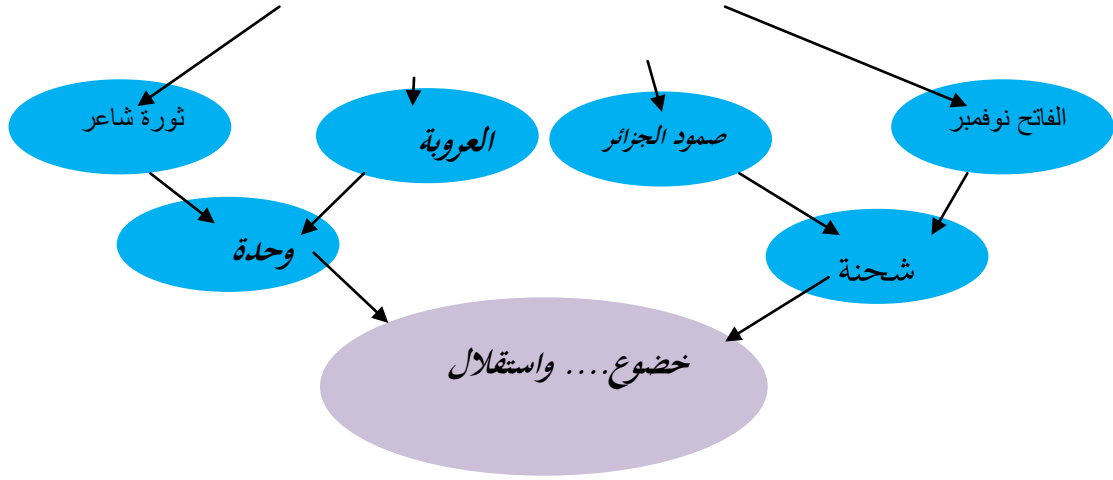
ويعلّل "تولمين" هذا بكون "الحجاج" يتأسس على الابتذال؛ إذ ليس هناك حجاج فردي، أو بعبارة أخرى: فإنّ الشعر يقوم على الرؤية الفردية، أمّا الحجاج فيتأسس على المعرفة المتبدلة والشائعة⁸. وفي السياق نفسه يرى "جورج فينو G.igneaux" أنّ «الخطاب الحجاجي خطاب غائي حجاجي بالضرورة؛ لأنّ هناك خطابات ذات غاية شخصية لا تهدف إلى إقناع الآخر؛ فالخطاب الشعري وبعض أنواع السير الذاتية والمذكرات الحميمية أمثلة لخطابات غائية ليست حجاجة»⁹، وهو بذلك يخرج الشعر من إطار الحجاج معتبراً إيّاه نقلاً لتجربة فردية غايته شخصية. غير أنّ المتأمل في حقيقة "الشعر" وطبيعة العملية الإبداعية يعي أنّ يتأسس بالإضافة إلى وظائفه المعلومة من شعرية وانفعالية، على "الوظيفة التوجيهية والإقناعية"؛ والتي قد يعزّ عنها الشاعر مثلاً بالتعجب والندبة والاستغاثة والأمر والنداء أو بأسماء الأفعال و الروابط التداولية الحجاجية، وبالتالي «فالنص الشعري ليس لعباً بالألفاظ فقط، وليس نقل تجربة فردية ذاتية فحسب؛ إنّّه يهدف كذلك إلى الحث والتحريض والإقناع والحجاج، وهو يسعى كذلك إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، وإلى دفعه إلى تغيير وضعيته وسلوكه ومواقفه»¹⁰. وبهذا نستشف بأننا نستطيع أن نقول إنّ هناك شعراً فردياً للإمتاع، كما هناك شعر حجاجي للإقناع، وهذا ما أكدّ عليه جلّ البلاغيين على رأسهم "حازم القرطاجني" الذي أخذ موقفاً توفيقياً بقوله «فما كان من الأقاويل القياسية مبنياً على التخيل وموجودة في المحاكاة، فهو يعد قولاً شعرياً، سوء كانت مقدمات برهانية أو جدلية أو خطابية، يقينية أو مظنونة، وما لم يقع فيه من ذلك بمحاكاة فلا يخلو من أين يكون مبنياً على الإقناع خاصة، كان أصيلاً في الخطابة دخيلاً في الشعر سائغاً فيه، وما كان مبنياً على الإقناع ممّا ليس فيه محاكاة فإنّ وروده في الشعر و الخطابة عبث وجهالة»¹¹. ونذكر من هذا القول أنّ حازم كان أكثر اعتدالاً لقضية الحجاج، وحضوره القوي في الشعر، فبالرغم «من أنّه يؤمن بأنّ الإقناع والتخيل مما يميز الخطابة من الشعر، فقد أشار في غير موضع أن الخطابة قد تستعمل التخيل، والشعر قد يستعمل الإقناع»¹². ونقول في الأخير إنّ الشعر لغة، وكل لغة حجاج، إذن فالشعر حجاجي.

4- التحليل الحجاجي للقصيدة:

ألّفنا المناهج المتداولة في تحليل النص الأدبي تؤسّس دراساتها على استراتيجيات متنوّعة في البنية النصية منها "العنوان"؛ وهو عتبة النص الأولى، أو البنى اللغوية الداخلية المترابطة في تشكيل النص، أو الصور البلاغية، أو غير ذلك من الآليات التي تبتغي الإحاطة بعالم النص في صفته الكلية. غير أنّ المنهج الحجاجي لا يقف عند هذا الحد؛ بل يأخذ بالنص على أساس أنّه فعل كلامي أكبر ينتقل من الغايات التي ركزت عليها المناهج الحديثة؛ وهي الإفصاح والتأثير، إلى غاية أكثر أهمية؛ وهي "الإقناع". ولذا نحاول بدايةً في قصيدة "اقرأ كتابك" تحديد مناسبتها، والتي نظمها شاعر الثورة وهو بسجن "البرواقية" بمناسبة الذكرى الرابعة للثورة الجزائرية يوم الفاتح نوفمبر 1958، وألقيت بالنيابة في إذاعة "صوت العرب" بالقاهرة.

فالمتكلّم هو الذات المنشئة لهذا النص أو (الأنا الناظمة، الشاعر مفدي زكريا)، أمّا المتلقون (الأنثى المتلقية) فقد نوع الشاعر فيهم؛ إذ خاطب في بعض الأبيات "الشعب الجزائري ككل"، يذكرهم بالفاتح نوفمبر، وفي أخرى "فرنسا" على أعمالها وحرائمها (أنتم)، وفي أخرى "مراكش والخضراء (تونس) والعراق ومصر؛ والتي نوه ببطولها جمال عبد الناصر"، و"من يريد" أخذ العبرة من أبطال الجزائر، ومثلها في الذبيح (الشهيد أحمد زبانه) الذي أيقظ بصرخاته الأمل في الحرية والتحدّي للاستعمار. ويمكن توضيح هيكل القصيدة وتناميها في المخطط التالي:

حجاجة القصيدة



يتبدى لنا من هذه الخطاطة التي تبين المجرى العام للقصيدية ومدى تحقق الحجاجية فيها، أنّ مفدي زكريا ينوّه بالفتاح نوفمبر الذي أحدث تغييراً جذرياً في شعبٍ حُطفت له حرّيته، ويظهر جلياً من الأبيات التالية¹³:

هَذَا نُوفَمْبَرٍ، فَمُ! وَحَيِّ الْمَدْفَعَا...
 وَأَقْرَأُ كِتَابَكَ، لِأَنَّامٍ مِفْصَلًا...
 واصدع بثورتك الزمان وأهله...
 واعقد لحقك في الملامح ندوة...
 وقل: الجزائر..! واصغ أن ذكر اسمها...
 شقت طريق مصيرها بسلاحها...
 شعب، دعاه إلى الخلاص بُناته...

وبيّن شاعر الثورة في مقام آخر كيف صمد الشعب الجزائري في وجه الاستعمار الذي استضعفه وسخر من ثواره الذين لَبّوا نداء الرشاش، وبشقى الوسائل لإضعاف إرادته، والحد من عزيمته، وإصراره على تحقيق النصر وهذا ما تبرهن عليه هذه الأبيات¹⁴:

استقبل الأحداث ، منها ساخرًا...
 وأراده المستعمرون، عناصرًا...
 واسضعفوه، فقرروا إذلاله...
 واستدرجوه، فدبروا إدماجه...
 وعن العقيدة، زوروا تحريفه...
 وتعمدوا قطع الطريق، فلم تُرد...

وكل هذه المحاولات كانت لخنق الثورة حيث تهادى الاستعمار العاشم بظلمه، وهمّ كالثور الهائج لتضييق الخناق على الجزائر فهمّ بقطع كل أواصر الحبة والتشجيع مع أحباب الوطن الأم، بعدما التفوا حوله وساندوه بالشام بلد الإحساس والمواقف:

إمّا تنهد بالجزائر موجه آسى الشام جراحه، وتوجعا

ثم أرض كنانة "العراق" التي استقبلت الثورة الجزائرية بقلب جرىء:

واهتز في أرض الكنانة خافق وأقضى في أرض العراق المضجعا

إلى أن يحط بنا الرحال في الأرض الخضراء، ثم بالبلد الشقيق المغرب، ليرحل إلى مصر لتسمو العروبة في سماء زرقاء وهذا ما تبرزه هذه الأبيات¹⁵:

وارتج في الخضراء، شعب ماجد لم تنه أرزاؤه أن يفزعا
وهوت مراکش حوله، وتألّمت لب نان، واستعد جديس وتبعا
فتماسكت بالشرق جمهورية عربية، وجدت بمصر المرتعا
تلك العروبة إن تثر أعصابها وهن الزمان حيالها وتضعضا

ثم يأتي بعد ذلك حسّ الشاعر وثورته ضدّ فرنسا التي ارتضت الموت والإذلال لشعب أراد الحياة، فوجدت أمامها شاعرا
متسلّحا بنور الاستقلال، ومتشعبا بروح المقاومة لآخر نفس، وبكل حماس وقوة وشجاعة يقول¹⁶:

هذي خواطر شاعر، غنى بها في (الثورة الكبرى) فقال وأسمعا
وتشوقات، من حبيس موثق ما انفك حبا بالكنانة مولعا
خلصت قصائده، فمأعرف البكا يوما، ولا ندب الحمى والمربعا
إن تدعه الأوطان، كان لسانها أو تدعه الجلى، أجاب وأسرعا

كل هذه الأفكار تلاحت لتكون حججا لفرنسا تنطق بلسان الحرية حروفا تألفت لترفع راية الاستقلال والحرية في وجه
مستعمر ساوم الشعب على أرضه، وما ساعده على توالي هذه الحجج معجمه اللغوي الذي استقى منه مادته اللغوية، فقد كانت
ذات صلة مباشرة بالواقع التاريخي الذي عرفته الجزائر إبان الثورة التحريرية، إلى جانب تلك الألفاظ التي تعكس الأبعاد التاريخية
والثقافية للشعب الجزائري وعلاقته المميزة بالشعوب العربية وشعار هذه العلاقة الوحدة العربية التي روحها العروبة. وقد نزع من
أنماط التركيب التي بنى عليها الشاعر نصه الشعري؛ إذ كانت بسيطة تخدم البعد الإبلاغي الذي ابتغاه. ونلاحظ أن كل هذه
المعطيات تساعد على تلقي النص وتحليله. والأبيات التالية تعكس ذلك¹⁷:

تلك الجزائر... تصنع استقلالها اتخذت له، مُهّج الضحايا، مصنعا
وامتصها المتزعمون، فأصبحت شلوا بأنياب الدئاب ممزعا
خير فرنسا، يا زمان بأننا هيهات، في استقلالنا، أن نُخدعا
واستفتت يا ديغول، شعبك، إنه حكم الزمان، فما عسى أن تصنعا
شعب الجزائر، قال في استفتائه لا!! لن أبيع من الجزائر إصبعا
واختار يوم(الاقتراع) نفميرا فمضى، وصمّم أن يثور، ويقرعا
—إبلاغية العنوان:

العنوان مفتاح القصيدة، إنّه العنصر والإطار الأول الذي يقوم عليه فعل التأويل أو القراءة. والعنوان الذي ارتضاه شاعر
الثورة مفدي زكريا هو: "اقرأ كتابك"؛ وهذه العتبة توحى بقداسة وعظمة هذا الكتاب، والذي لا بديل عنه لإيقاظ الهمم، وإبقاء
نار الثورة شاعلة تلهب كل من يستخف بلهبها. ومن هنا نستطيع القول بأنّ هناك قراءة ضمنية تنسجم مع التحليل الحجاجي
الذي سوف يستبان من خلال توظيف المنهج الحجاجي، وتظهر هذه القراءة في وعيد المستعمر بالمقاومة إلى آخر نَفَس بالرغم
من كل ما يقوم به من تصرّفات تقهر الشعب الجزائري المصمم على الاستقلال، وقراءة ثانية توحى وتعبر عن مدى اتحاد الشعوب
العربية التي وُحدها الإسلام وقوّها ظلم الاستعمار بمختلف أشكاله، وقوّبتها الأخوة، وجمع شتاتها التحرّر والاستقلال من عتمة
الاستعمار والاستعباد.

ب- الفعل الإنجازي الكلي للقصيدة:

تجمن على القصيدة أفعال إنجازية مضبوطة تخدم في جوهرها الوظيفة الإجمالية التي يريدها الشاعر، وهي "الأفعال التقريرية
Assertives"، والغرض منها كما يذكر "سيرل Searle" و"فاندرفيكن Vanderveken" هو "الغرض التقريري"،

و«اتجاه المطابقة في الغرض التقريري هو من القول إلى العالم... والشرط المعد لجميع التقريريات هو حيازة المتكلم على شواهد أو أسس أو مبررات ترجح أو تؤيد صدق المحتوى القضوي والحالة النفسية التي تبرر عنها التقريريات هي الاعتقاد»¹⁸. قد نوضح ذلك من خلال قول الشاعر:

هذا (نوفمبر)، قـ [] وحـي المدفعا
 واذكر جهادك... والسنين الأربعا
 إنّ الجزائر في الوجود رسالة
 الشعب حرّرها، وربك وقعا
 وقصيدة أزلية، أبياتها
 حمراء، كان لها (نوفمبر) مطالعا
 نظمت قوافيها الجماجم في الوغى
 وسقى التّجيع رويها، فتدفعها
 غنى بها حرّ الضمير، فأيقظت
 شعبا إلى التحرير شمّر مصرعا
 سمع الأصم رنينها، فعنا لها
 ورأى بها الأعمى الطريق الأنصعا
 ودرى الألى، جحدوا الجزائر، أنّها
 ثارت، وحكمت الدما، والمدفعا
 شقت طريق مصيرها بسلاحها
 وأبت بغير المنتهى، أن تقنا
 شعب، دعاه إلى الخلاص بُناته
 فانصب مذ سمع النداء، وتطوعا

أما وظيفة هذه الأفعال فهي إقناع الشاعر فرنسا بأنّ الشعب الجزائري سيقى صامدا مادام "نوفمبر" يعيش في كل قلب جزائري وصوته ضمير حي يعلو ويعلو ليحقق النصر ويقمع ظلم الاستعمار وجبروته، وعلى هذا الأساس ظلّ الشاعر يشرح ويوضّح إنجازية "نوفمبر"، وكذا كلّ الثوار الذين لبّوا النداء وزادهم في ذلك إيمانهم القوي بالثورة والفداء من أجل تحرير الوطن، كما قام شاعر الثورة بتوظيف أصناف أخرى من الأفعال الكلامية التي تخدم هذه الوظيفة ويدعمها، وتسمى "أوجه إنجاز مساعدة"، ف«المتكلم يجب أن يبني فعله الكلّي على نحو تُتجنب فيه أشكال سوء الفهم والرفض وردود الفعل غير المرغوب فيها من جانب السامع تبعا لإمكانية... توجد الإمكانية من خلال دعمه فعلا إنجازيا مهمنا بفعل إنجازي مساعد، ويحدث ذلك على أساس معارف نظام أنماط أفعال إنجازية»¹⁹. قد نوضح قيمة هذه الأفعال الإنجازية من خلال التركيز على الأصناف التالية²⁰:

شعب، دعاه إلى الإخلاص بُناته
 نادى به جبريل في سوق الفدا
 فأنصب مذ سمع النداء، وتطوعا
 فشرى وباع، بنقدها وتبرعا
 فلكم تصارع والزمان، فلم يجد
 فيه الزمان-وقد توحد- مطمعا

أ- «الطلبات Directives»: وهي الأفعال التي يجعل من خلالها المتكلم المخاطب يقوم بفعل ما؛ مثلها الأمر والطلب والعرض، وغيرها²¹. والغرض منها هو الغرض الأمري (الطلبي)، واتجاه المطابقة فيه يكون من العالم إلى القول، والمسئول عن إحداث المطابقة هو المخاطب²². والحالة النفسية التي يعبر عنها في هذه الأفعال هي الإرادة والرغبة، وهي تخلق للمخاطب أسبابا كي يؤدي المطلوب منه. ونلاحظ استعمال هذا الصنف من خلال الأفعال الكلامية في قول شاعر الثورة²³:

هذا (نوفمبر)، قـ [] وحـي المدفعا
 واذكر جهادك... والسنين الأربعا
 وقرأ كتابك، للأنام مفصلا
 تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا
 واصدع بثورتك الزمان وأهله
 واقرع بدونك الورى (والمجمعا)
 واعقد لحقك في الملامح ندوة
 يقف السلاح بها خطيبا مصقعا!
 وقل: الجزائر...! واصغ أن ذكر اسمها
 تجدد الجبابر ساجدين وركعا

شقت طريق مصيرها بسلاحها وأبت بغير المنتهى، أن تقنا
شعب، دعاه إلى الخلاص بُناته فانصب مذ سمع النداء، وتطوعا

فهذه المقطوعة تقوم على أصناف تعبيرية متنوّعة لها علاقة مباشرة بأنماط الأفعال الإنجازية المقصودة، نوضّح ذلك من خلال قول المتكلم: هذا نوفمبر "قم" و"اقرأ كتابك"، و"قل واقرع واصغ" وغيرها، هي نماذج عن طبيعة العلاقة التي بنيت على أساسها الأفعال الكلامية وأبرزت الوظيفة الإنجازية للنص ككل.

-بالإضافة إلى "البوحيات Expressives" التي ترهن بالحالة النفسية للمتكلم وما قد يثيره من مشاعر إزاء المخاطب. و«الغرض من البوحيات ذات الصيغة ق(ض) هو التعبير عن موقف أو مشاعر حيال الواقعة التي تعبر عنها القضية (ض) (الواقع)»²⁴. والقضايا التي تتضمنها ترتبط أكثر بنحو ما بالمتكلم أو المخاطب، والشرط المعد لأغلب البوحيات هو تحقيق المحتوى القضوي سلفاً؛ إذ يعبر المتكلم فيها عن حالته النفسية تجاه الواقعة المفروض تحققها. وقد وظّف الشاعر هذا الصنف خدمة للوظيفة العامة للقصيد؛ وهذا ما نلمسه في قوله:

وطن، يعزّ على البقاء، وما انقضى رغم البلاء، عن البلى، متمنعا
لم يرض يوماً بالوثاق، ولم يزل متشامخا مهما النكال تنوعا
هذي الجبال الشاهقات، شواهد سخرت، بمن مسخ الحقائق وادّعى
سل(جرجرا) تنبتك عن غضباتها واستفت (شليا) لحظة و شلعلعا
واخشع(ب(وارشنيس) إنّ ترايها ما انفك(للجند المعطر) مصرعا
كسرت تلمسان الصليعة ضلعة وهي (بصبرة) صبره فتوزعا
ودعاه (مسعود) فآدبر، عندما لاقاه (طارق) سافرا ومقنعا
الله فجّر خلدته، برماننا وأقام عزرائيل، يحمي المنبعا!
تلك الجزائر... تصنع استقلالها اتخذت له، مُهَجّ الضحايا، مصنعا

ففي هذا الأبيات علاقة مباشرة مع أنماط الأفعال الإنجازية المقصودة، فالأنا المخاطبة ههنا هي ذات الشاعر، أما المخاطب فهو "فرنسا" بجبروتها وقوّتها، لكن رغم هذه القوة فعزم الشعب الجزائري ماضٍ لا يعرف التردّد أو التراجع، وهذا ما نستنبطه من الأفعال الكلامية المبسّطة في المقطوعة السابقة؛ منها "سل"، و"واخشع"، "كسرت تلمسان".
ويجب أن نشير إلى أنّ الشاعر قد استعمل الجاز في الأفعال التقريرية (أفعال كلامية غير مباشرة) مما يفتح مجالاً جديداً لحركة الإخبار التي أرادها الشاعر، ولكنه ظلّ يقدّم أنماطه وفق المبتغيات المقصدية التي ظلّت تحركه؛ وهو يمثّل في جوهره «عاملاً فعالاً في تعويض الواقع الفعلي من الخطاب الشعري، بحكم عدم أهلية اللغة في عمومها لنقل تفاصيل التجربة في الواقع الحقيقي الذي أفرزها»²⁵.

ولنوضّح ذلك نمثّل بالتشبيه بوساطة الأداة الذي تكرّر عند الشاعر منها على سبيل المثال في قوله "ورأى القنابل كالصواعق، وغير ذلك من الأفعال الإخبارية التي تعطي لهذه القصيدة بعداً تأثيرياً أبلغ من التقرير المباشر.

ج- الروابط الحجاجية:

هناك جملة من المؤشّرات التي تربط بين الحجج والنتائج وتنظم العلاقات بينها، من أهمّها الروابط أو أدوات الربط التي درسها "ديكرو" وخصّ هذه الدراسة لـ "لكن، إذن، حتماً"، كما درس فضلاً عن ذلك «الروابط التي تفيد السببية من مثل "لأنّ" و"بما أنّ" و"لذلك"، وتفحص اختلافاتها... وهذه الروابط تمس بشكل مباشر التحليل الحجاجي، أين أضيفت لوظيفة الربط، ووظيفة أخرى هي وظيفة الربط التعليلي والعلاقة الحجاجية»²⁶.

ويمكن أن نتميز بين الروابط الحجاجية والعلاقات الحجاجية؛ فالأولى تضم مجمل الأدوات التي توفرها اللغة ويستغلها الباث من أجل «الربط بين مفاصل الكلام ويصل بين أجزائه فتتأسس عندها العلاقة الحجاجية المقصودة التي يراها مؤسس الخطاب ضرورية»²⁷.

أمّا الثانية؛ أي "العلاقات الحجاجية" فهي كثيرة من أهمها: علاقة التتابع أو السببية، أو الاقتضاء، أو استنتاج.

أ-روابط الوصل والفصل:

إنّ مهمة هذه الروابط الربط بين الجمل، ولكلّ رابط معنى يحدد وظيفتها، بالإضافة على السياق الذي تكون فيه، كما أنّ معنى الرابط لا يكتمل إلاّ مع اسم أو فعل يصحبه، ثمّ إنّ معرفة هذا المعنى تمكن المتكلم من اختيار ما يناسبه في الخطاب.

1-روابط الوصل:

"الوصل Conjonction" هو "علاقة منطقية تتمثل في تكوين قضية مركبة انطلاقاً من قضيتين بسيطتين بواسطة الرابط "و" مثلاً"²⁸. وهذا ما عزّزه أكثر "فان ديك Van Dijk" حيث اصطلح عليها بمصطلح "روابط الوصل التشريكي"، أمّا الوظيفة المخول إليها فهي "تكوين جمل مركبة من جمل بسيطة، وعلى ذلك فعمل هذه الروابط هو حصول الإجراء الثنائي"²⁹. ومن أبرز الروابط الغالبة في القصيدة هي "الواو"، وتوظّف في أصلها للعطف، وتفيد إشراك معاني متعدّدة في حكم واحد، وكذا الجمع بينها، وهذا ما وجدناه ماثلاً في هذه الأبيات³⁰:

و استقبل الأحداث، منها ساخرًا...

و أراده المستعمرون، عناصرًا...

و استضعفوه، فقررروا إذلاله....

و استدرجوه، فدبروا إدماجه....

و عن العقيدة، زوروا تحريفه....

و تعمدوا قطع الطريق، فلم تُرد....

فكل هذه المقاطع تؤكّد مدى حقارة الاستعمار وتفنّنه في إيذاء القضية الجزائرية والاستخفاف بالثورة، ومحاوله طمس عقيدة الشعب، لذا وظّف الشاعر الواو للربط بين هذه الحقائق التاريخية، كما نجد في موضع آخر يوظّفها ليبين لنا صموده، وأنّه شاهد عيان للثورة بكل أحداثها في قوله³¹:

هذي خواطر شاعر، وغنّي بها

وتشوقات، من حبيس موثق

ورأى القنابل كالصواعق، إن هوت

ورأى الجزائر، بعد طول عنائها

وفي موضع آخر وظّف الشاعر رابطاً آخر؛ وهو "إنّ وأنّ"، ويرى النحاة أنّها تستعمل للتأكيد والتحقيق، وهذا ما أراده في

هذه الأبيات؛ إذ يقرّر حقيقة جوهرية مفادها أنّ رسالة الجزائر ستظلّ أسمى رسالة في هذا الوجود، وقطعة قدسية بتضحيات شعبها وسيشهد التاريخ على نوفمبر وهي³²:

إنّ الجزائر في الوجود رسالة

إنّ الجزائر قطعة قدسية

وأراده المستعمرون، عناصرًا

واستضعفوه، فقررروا إذلاله

واستدرجوه، فدبروا إدماجه فأبت عروبتة له أن ييلعا

ونلاحظ من هذه الأبيات أنّ الشاعر يقرّ بحقيقة قام بها المستعمر ضدّ شعب رفض الإدماج، وصمم على حفظ كرامته بالثورة والاستقلال.

2- التكرار:

كما نجد الشاعر استعمل التكرار بأنواعه، فقد وظّف على سبيل المثال لا الحصر "التكرار اللفظي"، لما له من وقع في القلوب، وأثر بليغ في الأسماع والأذهان، ممّا يجعله رافدا مهمّا للحجاج في الأبيات الشعرية، ولكن الشاعر استطاع أن يحسن الصياغة، وكانت له القدرة على إحلال اللفظ المكرّر أو التركيب المستعاد محلّه المناسب في البيت، فلا ينقلب التكرار عندها إلى عيب يشين البيت. وقد كرّر لفظة "الجزائر" و"الدرى الألى" في قوله³³:

ودرى الألى، جهلوا الجزائر، أنّها قالت: "أريد" فصمّمت أن تلمعا
ثارت، وحكمت الدما، والمدفعا
يا مصر! يا أختَ الجزائر في الهوى! لك في الجزائر، حرمة لن تقطعا!
شعب الجزائر، قال في استفتائه لا!! لن أبيع من الجزائر إصبعاً...

3- السلم الحجاجي L'échelle Argumentative:

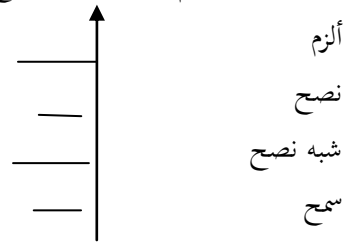
وقد عرفه "طه عبد الرحمن" بأنّه "عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية موفية بالشرطين التاليين:

1- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع

الأقوال التي دونه.

2- كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه³⁴.

وقد شرح هذا السلم أكثر "ديكرو Ducrot" باستعماله لفظة "PlusQue" فمثلاً: لفظة جامد أشد من بارد، ولفظة بارد أشد من منعش، والشيء نفسه ينطبق على الماء الساخن والدافئ والحر، أو بين الفعل ألزم وأوصى وسمح. ويمكن المقارنة بين ذلك من خلال المجموعات الثلاثة، حيث سينشأ وصفها حتى لو لم يتم تحديد العلاقة أشد من"، وكيفية تحديد هذه العلاقة هو الذي يشكل هذه السلم³⁵، ويمكن توضيح هذه الأمثلة عمودياً بالشكل التالي:



ونستشف من هذا المخطط أنّ هناك اتجاهها ووجهة للسلم لنصل إلى المعنى، وبهذا المفهوم «إذا كان يمكن إنشاء فعل حجاجي، فإنّ القيمة الحجاجية لهذا القول يتمّ تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي، وهذا الأخير قد يكون صريحاً أو مضمراً»³⁶.

وسنحاول أن نطبّق ذلك مع قصيدة مفدي زكريا؛ فمن البيت الأول إلى البيت الحادي عشر يضم الأفكار التالية:

1- نوفمبر ميلاد ثورة مجيدة.

2- شعب لبي نداء الفداء وهم يحمل السلاح.

3- تطيب بدماء الاستشهاد والتوجه لطريق التحرر من قيود الاستعمار.

فهذه كلها حججاً لكنها متفاوتة من حيث القوة والضعف وقد يكون السلم الحجاجي كالاتي:

نتيجة: الطريق نحو الاستقلال

—
—
—
- تطيب بدماء الاستشهاد والتوجه لطريق التحرر من قيود الاستعمار

شعب لي نداء الفداء وهم يحمل السلاح بشجاعة

نوفمبر ميلاد ثورة مجيدة، دونها التاريخ في صفحة ناصعة البياض

وكل قول يرد في درجة ما من السلم يلزم عليه القول الذي يليه، ويكون القول الذي يعلوه أقوى منه، فاندلاع الثورة،

واندفاع شعب لهذه الأخيرة هي حجج قوية، بئد أنّ الاستشهاد والتضحية لتحقيق النصر هي أقوى حجة في السلم.

ثم نلمس في الأبيات التي تلي عظمة نوفمبر (من البيت السادس عشر إلى البيت التاسع والعشرين) حججا متفاوتة

القوة، نُحمل معناها في الأفكار التالية:

1- مستعمر مستخف بالثورة الجزائرية.

2- محاولات مكثفة لإضعاف عزيمة قلوب ثائرة، بتضييق الخناق على مؤيديها؛ الشام، العراق، تونس الخضراء، جوهرة

المغرب مراكش.

3- تماسك واتحاد ومساندة من الأشقاء رغم الألم الظلم من مستعمر مستبد مستعبد.

4- مصر رمز العروبة (بشعبها وحاكمها الفذ بجمال عبد الناصر، وتصديه لأشقاء الاستعمار وهجوماته العنيفة على

حدوده حائط المبكى. ويمكن تمثيل هذه القوى في السلم الحجاجي التالي:

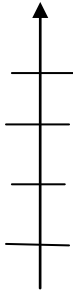
النتيجة: وحدة عربية.

مصر رمز العروبة (بشعبها وحاكمها الفذ بجمال عبد الناصر...،

تماسك واتحاد ومساندة من الأشقاء رغم الألم...،

محاولات مكثفة لإضعاف عزيمة قلوب ثائرة، بتضييق الخناق

مستعمر مستخف بالثورة الجزائرية



ونستشف من هذه القوى، والتي أساسها مستعمر لم يعر ثورة الشعب الجزائري أي قيمة، تم تليها مساعي لإطفاء نور هذه الثورة المباركة بقطع الإمداد عنها من الدول المساندة، ومنعها حتى الاعتراف بها، ثم إلى حجة قوية أوحث بشرعية هذه الفاتح

نوفمبر، ثم أخيرا نصل إلى أشد وأقوى حجة هي مصر التي عززت الثورة وأسمت صوتها المخنوق إلى الرأي العام ككل وبالتالي حققت الوحدة العربية.

إلى أن نصل في الأخير لقوى حجاجية لها علاقة قوية بالشاعر مفدي زكريا؛ وهي الأبيات الأخيرة من القصيدة التي عمد

فيها تبين تجربته الصادقة مع هذه الثورة المجيدة ويمكن عرضها في الحجج التالية:

1- شاعر وشاهد عيان، أسمع صوته للعالم .

2- شاعر أرسل وثائق تدين المستعمر: الذبيح بسجن بربروس، وهزائمهم في جبال جرجرة، وتلمسان وصيرة، وحاسي

مسعود.

3- شاعر حمل لواء الثورة والتحدي.

4- شاعر قدس نوفمبر فقدسه ولم يرضى بالاستقلال بديلا.

ويكون السلم الحجاجي كالآتي:

النتيجة: الحرية و استرجاع كل أرض الوطن.

شاعر آمن و قدس نوفمبر فقدسه ولم يرض بالاستقلال بديلا

شاعر حمل لواء الثورة والتحدي.

شاعر أرسل وثائق تدين المستعمر: الذبيح بسجن بربروس، وهزائمه

شاعر وشاهد عيان، أسمع صوته للعالم .

خاتمة:

لعلنا نكون قد أدركنا أنّ المنهج الحجاجي له فعالية كبرى في تحليل النص الشعري واستجماع كل علاقاته التركيبية، بالإضافة إلى أساسياته التي تتمظهر على شكل روابط حجاجية كفيلة بمخلق حوارية بين القصيدة وعالمها المنتج فيها من جهة، باعتبار أن هذا التحليل يتجاوز الوصف الشكللي القائم على التجزئة من غير ربط كل تلك الأفكار، وإنما ينسجها ضمن علاقات حجاجية تعكس المعاني الكلية للقصيدة، وكذلك تعزيها بكل الحجج القوية لتي لها دور كبير في ضبط مقاصد الشاعر، وغايات القصيدة.

الهوامش:

¹ -voir Ducrot ;dire et ne pas dire ;hermen ; paris ;1972.286

- 2- صابر حياشة، التداولية والحجاج، ص18.
- 3-المصدر نفسه، ص18.
- 4-ينظر أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ص54.
- 5-محمد عيد، النص الحجاجي العربي ، دراسة في وسائل الإقناع ، كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء الرابع، "الحجاج و المراس"، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010، ص5.
- 6-ينظر، محمد عيد ، المرجع نفسه، ص 6.
- 7-ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، ص28.
- 8-ينظر ، أبو بكر العزاوي، الخطاب و الحجاج، ص36.
- 9-محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص40.
- 10-محمد طروس، المرجع نفسه ص37.
- 11-منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت الحبيب بالخوجة، تونس، 1966، ص 67.
- 12-أبو بكر العزاوي، الخطاب و الحجاج، ص36.
- 13- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص57.
- 14- مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص59.
- 15- مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص60.
- 16- مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص64.
- 17- مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص67.
- 18- نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، د.طالب سيد هاشم الطبطبائي، الكويت مطبوعات جامعة الكويت، 1994، ص28.
- 19- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج ، ترجمة سعيد حسن بحيري، ص119.
- 20- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص59.
- 21-ينظر عادل فاخوري، تيارات في السيمياء، بيروت دار الطليعة، ط1/1990، ص98.
- 22-عادل فاخوري، المصدر نفسه، ص31.
- 23- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص57.
- 24- طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، ص32.
- 25- في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، د.نوري سعودي أبو زيد، ص81.

26-Voir Ruth amossy ; L'argumentation dans le discours, Discour politique, littérature ,D'idées ,Fiction Nathan, Paris 2000, p 159

- 27- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 318.
- 28- آن ريبول جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر سيف الدين دغلوس، محمد الشيباني، ص 276.
- 29- النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر عبد القادر قنيني، المغرب، افريقيا الشرق، 2000، ص 38.
- 30- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 59.
- 31- مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص 64.
- 32- مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص 58.
- 33- مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص 58.
- 34- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، ط2، ص 277.
- 35 -voir J C ,Anscombe et Ducrot ;l'argumentation dans la langue,philosophe et langue ,p54
- 36- أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ص 21.